11

الجزء الحادى عشر

الحرية

-١٠٠-

استيقظت يوم إطلاق سراحى بعد نوم استمر سويعات قليلة. وكان يوم ١١ فبراير يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى كيب تاون. وقمت بعمل تدريباتى الرياضية، واغتسلت وأفطرت ثم تكلمت بالهاتف مع عدد من أعضاء المؤتمر والجبهة الديمقراطية فى كيب تاون أدعوهم للحضور ليعدوا للإفراج عنى ويراجعوا كلمتى. وحضر طبيب السجن لفحصى. وكانت هناك أمور عديدة يجب مناقشتها وتقرير أمرها فى ذلك الوقت القصير. وكان عدد من أعضاء لجنة الاستقبال من بينهم سيرل رفاموسا وتريفور مانويل قد وصلوا. وكان أول شئ يجب تقريره هو أين أقضى أول ليلة بعد الإفراج عنى. وكان بودى قضاؤها فى منطقة الملونين والسود فى كيب تاون لإظهار تضامنى معهم ولكن زوجتى وأعضاء اللجنة رأوا أن أقضى الليلة فى منزل الأسقف توتو الفخم فى ضاحية بيضاء غنية لم يكن ليسمح لى بالعيش فيها قبل ذهابى إلى السجن ورأيت أن ذلك قد يكون مؤشرا خاطئا ولكن أعضاء اللجنة قالوا إن المنطقة فى وجود الأسقف أصبحت متعددة الأعراق ورمزا للانفتاح اللاعرقى.

وكان موعد الإفراج عنى قد حدد له الساعة الثالثة لكن وولتر ووينى وآخرين الذين كان مقررا وصولهم على طائرة مؤجرة من جوهانسبرج لم يصلوا حتى ما بعد الثانية. كان هناك عشرات فى المنزل وأخذ الجمع مظهر الاحتفال وأعد الطاهى وجبة نهائية لى وشكرته ليس فقط على الطعام بل على رفقته لى لمدة عامين وحضر حارسى جيمس جريجورى وعانقته بحرارة فقد كان قد رعانى منذ بولسمور وحتى سجنى الحالى ولم يحدث أن تناقشنا قط فى السياسة لكن الرابطة بيننا كانت بلا كلمات.

وكان رجال كهؤلاء قد دعموا إيمانى بجوهر الإنسان حتى بالنسبة لهؤلاء الذين أبقونى خلف الجدران لسبعة وعشرين عاما.

كانت الخطة أن أخرج أنا ووينى من البوابة الأمامية بالسيارة وكنت قد أخبرت السلطات أنى أود وداع الحراس والسجانين الذين رعونى وقد طلبت أن يتواجدوا هم وأسرهم عند البوابة لأتمكن من شكرهم بنفسى.

وبعد الثالثة بدقائق اتصل بى مسئول معروف من إذاعة جنوب إفريقيا

وطلب أن أنزل من السيارة بعيدا عن البوابة كى يمكنهم التقاط فيلم لى وأنا أسير نحو الحرية ووافقت.

وبدأت أقلق فى الثالثة والنصف حيث إننا كنا قد تأخرنا. وقبل الرابعة تحركت السيارات فى موكب صغير وقبيل البوابة بما يقرب من ربع ميل ترجلت وبينى لنسير فى اتجاه البوابة.

وفى البداية لم أتبين ما كان يحدث أمامنا ولكن حين اقتربت رأيت اضطرابا هائلا وجموعا غفيرة. فقد كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيونية ورجال صحافة وعدة آلاف من المؤيدين. وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع ذلك.

فقد ظننت أنه سيكون هناك بضع عشرات بما فيهم السجانون وأسرهم. ولكن فقد كانت تلك فقط البداية ولم نكن أعددنا لما كان على وشك أن يحدث.

وأخذت الكاميرات تحدث أصواتها المعدنية وأخذ المراسلون يتصايحون بأسئلتهم كما بدأت فرق التليفزيون فى التزاحم وكان مؤيدى المؤتمر يتصايحون ويهتفون.

كانت حال من الفوضى السعيدة. وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشئ غامق فروى الملمس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن فأخبرتنى وينى أنه مكبر للصوت.

وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم

أكن قد تمكنت من فعل ذلك منذ سبعة وعشرين عاما وأمدنى ذلك بفيض من القوة والبهجة ومكثنا قليلا وسط الجموع قبل أن نسرع إلى سيارتنا مرة أخرى لنذهب باتجاه كيب تاون وبعد عبور البوابة ركبنا عربة أخرى خارجها. وشعرت وكنت فى الحادية والسبعين أن حياتى تبدأ من جديد. فقد انتهت الأيام العشرة آلاف لسجنى.

وكانت كيب تاون تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى. لكن ما أدهشنى كان هو رؤية العديد من الأسر البيضاء تقف على جانب الطريق للقائى وقد سمعوا فى الإذاعة أننا قد غيرنا مسارنا، ورفع قليل منهم قبضاتهم بتحية المؤتمر وأمدنى هؤلاء الشجعان الذين ينتمون لأسر محافظة فى منطقة ريفية والذين عبروا عن تضامنهم أمدنى هؤلاء بإحساس هائل بالشجاعة. وعند نقطة معينة أوقفت السيارة وخرجت وحييت شاكرا أسرة من هؤلاء وأخبرتهم أن مؤازرتهم قد أمدتنى بالإلهام. وجعلنى ذلك أرى أن جنوب إفريقيا التى أنا عائد إليها تختلف تماما عن تلك التى تركتها.

وعند حدود المدينة كان بإمكانى رؤية الناس وهم يتدفقون نحو الوسط. فقد نظمت لجنة الاستقبال حشدا فى الميدان الرئيسى وسط كيب تاون وكان مقررا أن أخطب فيهم من شرفة بلدية المدينة التى كانت تطل على كل المنطقة وكنا قد سمعنا أن جموعا غفيرة كانت تنتظر هناك منذ الصباح.

وحينما اقتربنا من الميدان كان بإمكاننا رؤية الحشود الهائلة وكان من

المفروض أن يدور السائق حول المبنى ولكن بدلا من ذلك اخترق الجموع وفى الحال اندفعت الحشود وأحاطت بالعربة. وحاولنا السير لمدة دقيقة أو اثنتين لكننا أجبرنا على الوقوف بقوة ضغط الأجساد. وبدأ الناس يضغطون على السيارة ثم بدأوا فى انفعالهم يقفزون عليها ثم أخذ البعض يهزونها حتى انتابنى للحظة شعور بالقلق وشعرت أن من الممكن لحب الناس أن يقتلنا. وحاول البعض فتح طريق وإزاحة الجموع عن السيارة لكن لم ينجحوا. ولمدة تربو على الساعة بقينا داخل السيارة حيث سجننا مؤيدونا وكنا قد تجاوزنا منذ فترة ميعاد إلقاء الخطاب.

وفى النهاية حضر عشرات من رجال الشرطة لإنقاذنا ونجحوا أن يخلوا طريقا للسيارة وسار السائق بسرعة كبيرة فى اتجاه مخالف للمبنى وسألته إلى أين نحن ذاهبون فأجاب أنه لا يعرف فلم يكن قد خبر شيئا مثل ذلك من قبل.

وحينما هدأنا وصفت له منزل صديقى ومحامى دوله عمر الذى كان يسكن فى القسم الهندى من المدينة ولحسن الحظ كان متواجدا هو وعائلته وبدل أن يحيونا سألونا بقلق عن سبب عدم تواجدنا فى الميدان الكبير.

ولم يمض علينا هناك دقائق حتى اتصل الأسقف توتو تليفونيا وكان حزينا وقال إن علىَّ أن أحضر إلى الميدان فى الحال لأن الناس أصابهم القلق وقال إنه لا يضمن ما يمكن أن يحدث من اضطرابات

إن لم أعد فوعدته بالعودة. وبعد جهد أقنعنا السائق بالعودة. ولم يكن الازدحام شديدا عند المدخل الخلفى للمبنى. وصعدت وخرجت إلى الشرفة ورأيت جموعا لا متناهية من الجماهير المحتفية المهللة التى كانت ترفع الأعلام والشعارات وتهتف وتصفق وتضحك.

ورفعت قبضتى للجمهور وردت الجموع بهتاف هائل وتبادلنا الهتافات لإفريقيا واشتعلت روح المقاومة داخلى. وبعد أن هدأت الجموع قرأت خطابى الذى حييت فيه الشعب باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع وذكرت أننى لا أقف بينهم كنبى ولكن كخادم متواضع لهم أضع السنوات الباقية من حياتى بين أيديهم.

كنت أتحدث من القلب وأردت إبلاغ الناس أننى لست مسيحا ولكن رجلا عاديا أصبح قائدا بسبب الظروف غير العادية. وأردت فى الحال أن أشكر جميع الناس فى أنحاء العالم الذين ضغطوا من أجل الإفراج عنى وشكرت شعب كيب تاون وحييت أوليفر تامبو والمؤتمر و MK والحزب الشيوعى والجبهة الديمقراطية ومجلس شباب جنوب إفريقيا والاتحادات التجارية والحركة الجماهيرية واتحاد طلبة جنوب إفريقيا والحركة النسائية وأعلنت عرفانى بالجميل لزوجتى وأسرتى. وقلت لهم إنه لا مستقبل للأبارتايد فى جنوب إفريقيا وأن عليهم ألا يتركوا عبء العمل الجماهيرى. ثم أكدت أننى لم يحدث أن تحدثت مع الحكومة بشأن مستقبل البلاد إلا لأصر على اجتماع بين المؤتمر والحكومة. ثم أشرت إلى شروطى لبدء المفاوضات الحقة. وأخبرتهم أن دى كلارك اتخذ خطوة أكثر من أى قائد قومى آخر لتطبيع الموقف ثم

أضفت أن دى كلارك رجل يلتزم بقوله. وقد أرقتنى هذه العبارة فيما بعد و ووجهت بها حينما لم يحافظ دى كلارك على وعده.

وقد كان من الأمور الحيوية لى أن أبرهن للشعب والحكومة أننى لم يفت عضدى ولم تنحن هامتى وأن المعركة لم تنته ولكنها بدأت من جديد بشكل مختلف وأكدت كونى عضوا وفيا مطيعا للمؤتمر وشجعت الناس على العودة وراء المتاريس وتصعيد المعركة وقلت لهم إننا سنسير الميل الأخير معا.

وعند عودتى شاهدت مئات من الوجوه السوداء تنتظر لتحيينى وتعانقت بحرارة من الأسقف توتو فقد كان رجلا ألهم أمة بأكملها بكلماته وشجاعته فى ظروف حالكة.

وفى المنزل كان ينتظرنى جمع من الأصدقاء والأهل، لكن اللحظة الرائعة كانت عندما اخبرت أن هناك مكالمة لى من استوكهولم وكان صوت أوليفر ضعيفا وملأتنى الفرحة لسماعه بعد كل تلك السنوات وكان أوليفر فى السويد يستشفى بعد جلطة أصابته فى أغسطس ١٩٨٩. واتفقنا على أن نلتقى فى أسرع وقت.

-١٠١-

وكان المؤتمر قد خطط لعقد مؤتمر صحفى لى عصر اليوم بعد الإفراج. والتقيت فى الصباح بعدد من زملائى للتباحث بشأن الاستراتيجية. وكان قد وصل تل صغير من برقيات ورسائل التهنئة من أنحاء العالم من رؤساء وزارات لكنى أتذكر بالذات برقية من رب منزل

فى كيب تاون قال فيها: «إنى مسرور جدا لأنك الآن حر بين أصدقائك وعائلتك. لكن خطابك أمس كان مملا».

وبعد ظهر ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الصحفيين من بلاد مختلفة حتى أننى لم أكن أعلم مع من أتكلم. وسرنى أن أرى نسبة الصحفيين السود. وفى المؤتمر الصحفى عملت على تأكيد كونى عضوا فى المؤتمر وكنت أعرف أن قيادات المؤتمر فى الخارج ستشاهد وقائع الإفراج عنى وستحاول تقدير ولائى وكنت أيضا أعلم أنهم سمعوا شائعات عن تحولى وعن تنازلات قدمتها وودت أن أطمئنهم وحينما سئلت عن الدور الذى سأقوم به فى المؤتمر أجبت أننى سأقوم بأى دور تحدده المنظمة وقلت إنه ليس هناك أى تعارض لتأييدى الكفاح المسلح وتمسكى بالمفاوضات فإن الكفاح المسلح هو الذى أتى بالحكومة إلى حافة المفاوضات وحينما سئلت عن العقوبات أجبت أن الظروف التى أوجبت العقوبات مازالت قائمة وهى غياب الحرية السياسية للسود ورغم أنه قد أطلق سراحى فإنى لست حرا.

وسئلت عن مخاوف البيض وكنت أعلم أن الناس يتوقعون أن أكون غاضبا من البيض ولكن سنوات سجنى خففت مدى غضبى على البيض رغم أن كراهيتى للنظام تنامت وكنت أود لجنوب إفريقيا أن ترى أننى أحب حتى أعدائى رغم كراهيتى للنظام. وأردت أيضا أن يفهم الصحفيون أهمية البيض فى أى نظام جديد فلم نكن نود تدمير البلاد قبل أن نحررها وكانت مغادرة البيض تعنى خراب البلاد، فقلت إن هناك نقط تلاق بين البيض والسود وإن المؤتمر سيوجدها وإن

البيض مواطنون جنوب أفارقة وأودهم أن يشعروا بالاطمئنان وأن يعرفوا أننا نقدر مساهمتهم فى تقدم البلاد وأن جنوب إفريقيا اللاعرقية ستكون وطنا للجميع.

وبعد المؤتمر تلقيت مكالمة من زوجة الأسقف توتو فى جوهانسبرج قائلة إن علىّ الحضور إلى هناك فورا نظرا لأن الناس بدأوا يقلقون وكان الخوف أن تحدث اضطرابات إذا لم أعد فورا. وذهبنا إلى هناك ولكنى أبلغت أن هناك ألوفا تحاصر منزلى فى أورلاندو وقضيت الليلة مع وينى فى منزل أحد الأصدقاء فى شمال جوهانسبرج.

وفى الصباح ذهبنا بطائرة عمودية إلى استاد البنك الأهلى فى سويتو وكان بإمكانى من الطائرة أن أرى الفقر المدقع الذى تعيشه غالبية الجماهير السوداء التى تقطن المنطقة وكانت مظاهر الفقر قد اشتدت عما كانت عليه قبل ذهابى إلى السجن.

وهبطنا وسط الاستاد بالطائرة الذى كان قد ازدحم فيه ما يقرب من ١٢٠.٠٠٠ شخص وخاطبتهم قائلا إننى مبتهج بعودتى إلى سويتو ولكن أيضا يغمرنى الحزن لما يعانونه تحت نظام لا إنسانى من نقص المساكن وأزمة المدارس وبطالة ومعدل مرتفع للجريمة. وأكدت على هدف المؤتمر فى إقامة مجتمع لا عرقى.

وعدت تلك الليلة إلى منزلى فى أورلاندو وتحققت أن ما تشوقت إليه دائما وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه. فإنه فى تلك الليلة ولمدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين

أخذوا فى الغناء والرقص والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى.

-١٠٢-

وكانت مسئوليتى الأولى هى الذهاب إلى قيادة المؤتمر فى لوساكا. وذهبت هناك فى ٢٧ فبراير لحضور اجتماع اللجنة المركزية وكان لقاء رائعا مع رفاق لم أرهم لعقود من الزمن وكان هناك عدد من رؤساء الدول الإفريقية. وتحدثت مع الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى وكينث كاوندا رئيس زامبيا وجوسين ادواردو دموس سيمانتوكا رئيس أنجولا وكوين ماسير رئيس بوتشوانا وجاكيم شسانو رئيس موزمبيق ويويرى موساڤينى رئيس أوغندا. وكانت التساؤلات تبدو فى عيون أعضاء اللجنة عما إذا كان مانديلا مازال نفس الشخص الذى عرفوه من قبل. وشرحت لهم بدقة طبيعية محادثاتى مع الحكومة ومطالبى منها والتقدم الذى تم إحرازه وقد كنت سمعت عن الوشايات التى نقلها بعض من تم الإفراج عنهم وسعيت إلى دحضها عن طريق المصارحة بكل شئ فعلته. وفى تلك الجلسة تم انتخابى نائبا لرئيس المنظمة بينما انتخب الفريد نزو رئيسا بالنيابة حتى يتم شفاء أوليفر. وفى مؤتمر صحفى أعلنت أننى أرى أن الوقت لم يحن بعد لتعليق الكفاح المسلح لأننا لم نصل إلى الهدف الذى بدأنا من أجله فإن إسكات مؤيدى دى كلارك اليمينيين ليس مهمة المؤتمر.

وبدأتُ رحلة فى إفريقيا شملت عدة دول وفى كل مكان ذهبت إليه كنت

أقابل بالجماهير المتحمسة التى بلغ عددها نصف مليون فى دار السلام. وفى القاهرة، وفى اليوم التالى للقاء خاص مع رئيس الجمهورية حسنى مبارك. كان من المقرر أن أخطب فى حشد كبير فى قاعة محلية. ولما وصلت بدت الجموع تفيض من القاعة ولم تكن هناك احتياطات أمنية كافية فذكرت لرجل الشرطة أنه يجب دعم القوة ولكنه هز كتفيه. وانتظرت وويني فى غرفة خلف المبنى وفى الساعة المحددة أشار إلى رجل الشرطة أن أدخل وطلبت منه أن يرافق بقية الوفد أولا خوفا من حدوث جلبة بعد دخولى ولا يتمكنوا هم من اللحاق بى. لكن رجل الشرطة حثنى على الدخول أولا، وفعلا، وبمجرد دخولى القاعة تزاحمت الجماهير مندفعة إلى الأمام وتغلبت على كوردون الشرطة، وفى حماسهم دفعوا بى، اهتز توازنى وفقدت فردة حذائى فى تلك الفوضى. وبعد أن بدأت الأمور تهدأ وبعد عدة دقائق ولم أعثر على حذائى أو على زوجتى. وفى النهاية، وبعد حوالى نصف ساعة أحضروا وينى معى على المسرح، وكانت غاضبة لما حدث. ولم أستطع مخاطبة الجمهور لأنهم ظلوا يهتفون «مانديللا، مانديللا» بصخب لدرجة لم يستطع معها أحد سماع صوتى وغادرت المكان فى النهاية بدون حذائى وكانت زوجتى صامتة على غير العادة.

وأثناء وجودى فى القاهرة عقدت مؤتمرا صحفيا قلت فيه إن المؤتمر على استعداد لدراسة وقف أعمال العنف وكان ذلك مؤشرا للحكومة فقد كان كل من المؤتمر والحكومة يحاولان خلق مناخ لبدء المفاوضات وبينما كان المؤتمر يطلب من الحكومة تطبيع الموقف بإنهاء حالة

الطوارئ والإفراج عن المعتقلين وإلغاء قوانين الأبارتايد كانت الحكومة مصرة على أن يعلق المؤتمر الكفاح المسلح وكنا نود أن نمنح دى كلارك فرصة ليواصل استراتيجيته الإصلاحية وكنا نعرف أننا لابد وأن نعلق الكفاح المسلح لتسهيل المفاوضات الجدية ولتمكين دى كلارك من أن يبرهن لناخبيه على نجاح سياسته.

وبعد ذلك ذهبت إلى ستوكهولم لزيارة أوليفر ولم يكن بصحة جيدة. وحين التقينا كنا كصبيين صغيرين يستمدان الحب من أحدهما الآخر. وكان أول شئ قاله لى أوليفر بعد أن انفردنا أنه علىَّ أن أتولى رئاسة المؤتمر لأنه كان يحتفظ بها لى. وكان ردى أنه قد تم انتخابه وعلينا الانتظار حتى تحين الانتخابات ولم أحد على موقفى.

وفى إبريل ١٩٩٠ ذهبت إلى لندن لحضور حفل موسيقى أقيم على شرفى واشترك فيه فنانون دوليون كان معظمهم غير معروف لى وأذيع الحفل بالتليفزيون فى جميع أنحاء العالم وانتهزت الفرصة لشكر القوى المعارضة للأبارتايد فى العالم التى أوجبت العقوبات وطالبتْ بالإفراج عنى وعن زملائى وعلى التأييد والتضامن مع الشعب المقهور فى بلدى.

-١٠٣-

حينما خرجت من السجن كان الرئيس مانجستو بوتيليزى زعيم حزب إنكاثا للحرية ورئيس وزراء كوا زولو أحد الشخصيات السياسية على

المسرح السياسى لجنوب إفريقيا ولكنه لم يكن يتمتع بشعبية فى دوائر المؤتمر. وكان أحد أحفاد ملك الزولو سيتيوايو الذى كان قد هزم البريطانيين سنة ١٨٧٩. وكان وهو شاب طالبا فى فورت هير وبعد ذلك التحق بتنظيم شباب المؤتمر وكنت أتوسم فيه صفات الشخصية القيادية للمستقبل. وكان قد أصبح رئيسا لوزراء كوازولو بموازرة المؤتمر. وحتى حينما أنشأ الإنكاثا كمنظمة حضارية للزولو لم يعارضه المؤتمر. ولكن بمرور السنوات تباعد الرئيس بوتيليزى عن المؤتمر. ورغم أنه كان يعارض الأبارتايد بشدة ورفض جعل الكوازولو موطنا مستقلا كما أرادت الحكومة فقد كان شوكة فى جنب الحركة الديمقراطية إذ كان يعارض المقاومة المسلحة وانتقد انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ وقاد حملة ضد العقوبات الدولية وكان يتحدى فكرة جنوب إفريقيا موحدة. ورغم ذلك كان الرئيس بوتيليزى يدعو بانتظام للإفراج عنى ورفض التفاوض مع الحكومة حتى يتم الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وكان أول من تحدثت معهم على الهاتف لأشكره على مساندته طويلة الأجل. وكان رجائى هو أن ألتقى به سريعا لأحسم خلافاتنا. واقترحت تلك المقابلة فى لوساكا لكن لم يتم الموافقة عليها. وحينما كنت فى السجن دعا ملك الزولو جودويل زويليثينى وولتر لزيارة أولندى عاصمة الكوازولو وشجعته على قبول الدعوة ظنا منى أنها مناسبة ممتازة للتأثير فى رئيس إحدى أكثر الأسر المالكة احتراما ووقارا فى البلاد. ووافق المؤتمر مبدئيا على أن يذهب وولتر إلى قصر الملك فى نونجوما لاعتقادهم أن ذهابه إلى أولندى هو اعتراف بسلطة

المواطن المستقلة أو البانتوستانات.

وبعد عودتى من لوساكا حادثت رئيس الوزراء والملك هاتفيا وقلت إن وولتر يستعد للقاء الملك فى نجوما وليس فى أولندى ورد الملك أنه لن يقبل أن يزوره وولتر فى أى مكان آخر سوى العاصمة وأضاف أنه قد دعاه لزيارته فى أولندى وليس من حقه تحديد مكان الزيارة. قلتُ إننا نواجه معارضة من أعضاء المنظمة الذين لا يرغبون فى ذهاب وولتر إلى كوازولو كلية. ورفض الملك أن يقابل وولتر.

ساءت العلاقات بعد ذلك وفى مايو أقنعت المؤتمر بالحاجة لأن أزور الملك وبوتيليزى ووافق الملك ولكن قبل الزيارة بأسبوع تلقيت خطابا منه يقول فيه إن علىَّ أن آتى منفردا وكانت تلك آخر قشة ورفضت اللجنة المركزية. وقلت للملك إننى لا أستطيع القدوم إلا فى رفقة زملائى واعتبرها إهانة وألغى الزيارة. وكان هدفى تكوين علاقة مستقلة لأن الملك كان القائد التقليدى للزولو الذين كانوا يحبونه ويحترمونه وكان الإخلاص للملك فى كوازولو أكثر انتشارا من الولاء لإنكاثا.

وفى تلك الأثناء كانت ناتال قد أصبحت منطقة اقتتال. فقد أعلن مؤيدو إنكاثا المسلحون الحرب على معاقل المؤتمر فى منطقة وسط ناتال وحول بيترماريتزبرج وتم إحراق قرى بأكملها وقتل العشرات وجرح المئات وأصبح اللاجئون يعدون بالآلاف. وفى ناتال كان الزولو يقتلون زولو آخرين لأن أعضاء المؤتمر هناك من الزولو. وبعد الإفراج عنى بأسبوعين ذهبت إلى دربان وخطبت فى جمع يربو على المائة ألف

شخص كانوا كلهم تقريبا من الزولو وطلبت منهم إلقاء السلاح والتوافق. لكن دعوتى لم تلق استجابة. وأصبحت قلقا لدرجة أننى كنت على استعداد لاتخاذ الخطوات اللازمة لزيارة الرئيس بوتيليزى. وفى مارس وبعد نوبة شديدة من أعمال العنف أعلنت بصفتى الشخصية أننى سوف أزوره فى قرية خارج بيترماريتزبرج ولكن قيادة المؤتمر فى ناتال عارضت الزيارة معارضة شديدة ورفضتها.

-١٠٤-

وفى مارس وبعد مفاوضات كثيرة مع أحزابنا رتبنا للاجتماع وجها لوجه مع دى كلارك وحكومته لإجراء محادثات بشأن المفاوضات فى اجتماعات تبدأ فى إبريل. ولكن فى ٢٦ مارس وفى منطقة إفريقية فى جنوب جوهانسبرج فتحت الشرطة النيران بدون تحذير على متظاهرين من المؤتمر وقتلت اثنى عشر وأصابت المئات الذين جرح معظمهم فى ظهورهم وهم يقومون بالفرار. وبما أن حق التجمع والتظاهر لتأييد مطالبنا العادلة ليس منحة تسبغها علينا الحكومة وقت ما تريد فقد أغضبنى ذلك التصرف وقلت للحكومة إن كل شرطى أبيض يرى فى كل شخص أسود هدفا له. وبعد استشارة المؤتمر أعلنت تأجيل المحادثات.

ولكن رغم التأجيل وبموافقة القيادات تقابلت سرا مع دى كلارك فى كيب تاون لدفع عملية المحادثات وركزنا على تحديد ميعاد آخر. ولم تكن الحكومة فى عجلة من أمرها فقد كانوا يريدون للوقت أن يمر لكى

أفشل وأبرهن للناس أن السجين السابق الذى ظنه الناس مخلصا هو إنسان لا يعلم شيئا عن الوضع الحالى. أما دى كلارك، فرغم خطواته التقدمية فهو لم يكن محررًا فقد كان يتحرك ببطء. وكان أيضا براجماتيا ليس فى نيته التخلى عن مركزه بل على العكس كان قد اتخذ تلك الخطوات لضمان قوة الأفريكان فى ظروف جديدة ولم يكن مستعدا للتفاوض لإنهاء الحكم الأبيض.

وكان هدفه خلق نظام لاقتسام القوة مبنى على حقوق المجموعات الذى يحافظ على سلطة الأقلية البيضاء. ورغم أنه كان على استعداد أن يسمح للأغلبية السوداء بالإدلاء بالأصوات وبعمل التشريعات لكنه أراد أن يبقى على حق الفيتو للأقلية. وعارضت الخطة منذ البداية ووصفتها بأنها أبارتايد مستتر.

وكانت استراتيجية القوميين للتغلب هى التحالف ضدنا مع إنكاثا واجتذاب الملونين الناطقين بالأفركانية فى الكيب لعضوية حزب قومى جديد وحاولوا نشر الرعب بين الملونين بترويج شائعة عداء المؤتمر للملونين. وأيدوا خطة بوتيليزى للحفاظ على قوة الزولو وهويتهم فى جنوب إفريقيا الجديدة بأن أقنعوه بمبدأ حقوق الجماعات والفدرالية.

وبدأت الجولة الأولى للمفاوضات فى مايو وكان وفدنا يتكون من وولترسيسولو وجوسلوفو والفريد نزو وثابو مبيكى وأحمد كاثرادا وجو موديسى وروث ممباتى وآرشى جوميد والمبجل بيرسى نودى وتشريل كارلوس وأنا وعُقدت الاجتماعات فى قصر قديم بالكيب.

وكانت المحادثات فى حد ذاتها علامة مميزة فى تاريخ بلدنا، فلم يكن الاجتماع يمثل فقط ما أراده المؤتمر كل تلك السنوات، ولكنه كان يمثل نهاية علاقة السيد بالخادم التى كانت هى علاقة الرجل الأبيض بالأسود فى جنوب إفريقيا. ولم نأت الاجتماعات كمتسولين بل كمواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة.

وكان الاجتماع الأول درسا فى تاريخ المؤتمر. أما دى كلارك فقد قال إن نظام التنمية المستقلة كان قد تولد عن نوايا طيبة ولكنه لم ينجح على أرض الواقع. وكانت أول قضية نوقشت هى تعريف المعتقلين والمنفيين السياسيين وكانت الحكومة تريد تعريفا فى حدود ضيقة ولكننا أردنا تعريفا شاملا ينطوى تحته كل من أدين فى تهمة كان دافعها سياسيا وبذلك ينطبق عليه العفو. ولم نتوصل إلى اتفاق. وفى نهاية الأيام الثلاثة توصلنا إلى خطة يتفق على أساسها الطرفان بأن يلتزما بعملية التفاوض السلمى وتلتزم الحكومة برفع حالة الطوارئ وقد نفذت ذلك واستثنى إقليم ناتال نظرا لأعمال العنف السائدة هناك وبخصوص القضايا الدستورية فقد أبلغنا الحكومة أننا نطلب مجلسا منتخبا لصياغة دستور جديد. ولكن قبل انتخاب المجلس رأينا أن تشكل حكومة جديدة انتقالية تشرف على عملية الانتقال حتى تنتخب الحكومة الجديدة وتبنينا فكرة إيجاد مؤتمر تفاوضى من كل الأحزاب يشكل الحكومة الانتقالية. كما اتفقنا على تكوين فريق عمل مشترك للتغلب على الصعوبات.

-١٠٥-

لم أتمكن من الذهاب إلى قونو بعد الإفراج عنى حتى شهر إبريل. وبعد اتخاذ احتياطات الأمن وإعداد الكلمات التى سألقيها ذهبت إلى هناك حيث زرت قبر أمى المتواضع. وحين ذهبت إلى قريتى راعنى ما رأيت من التغيير وعدم التغيير. فخلافا عمّا خبرته عندما كنت صغيرا من تقبل الأهل للحياة كما هى وعدم وجود دراية سياسية سمعت أطفال المدارس ينشدون أغنيات عن أوليفر وتامبو وMK وأقلقنى فقر القرويين المدقع، فقد بدوا أكثر فقرا مما كانوا عليه فى الماضى. كانوا مازالوا يعيشون فى الأكواخ البسيطة ذات الأرضية الترابية حيث لا توجد كهرباء ولا مياه جارية. فحينما كنت صغيرا كانت القرية مرتبة والمياه صافية والعشب أخضر لكن الآن بدت القرية غير نظيفة والمياه ملوثة.

وفى ذلك الشهر زرت جزيرة روبن لإقناع خمسة وعشرين من رجال MK بأن يقبلوا عفوا من الحكومة ويتركوا الجزيرة. لكنهم قالوا إنهم سيقبلون العفو فقط فى حالة الانتصار فى المعركة الحربية وليس على مائدة المفاوضات. وكانت معارضتهم شديدة لأن الحكومة طلبت منهم الاعتراف بجرائمهم قبل العفو. وبعد مناقشات قبلوا عرض الحكومة.

وفى يونيو كان مقررا لى أن أذهب فى جولة فى أوروبا وأمريكا لمدة ستة أسابيع. وحاول دى كلارك إقناعى بإسكات الدعوة لمد العقوبات المفروضة على النظام العنصرى لكننى قلت له إننا لن نفعل ذلك حتى

ينتهى الأبارتايد وتكوين حكومة انتقالية وكنت أعلم أن الاتحاد الأوروبى كان راغبا فى تخفيف العقوبات. وبينما أنا فى فرنسا ألغت الحكومة حالة الطوارئ وسررت رغم علمى أن الخطوة كانت قد اتخذت لتقويض دعوتى لمد العقوبات، ذهبت إلى سويسرا وإيطاليا وهولندا وإنجلترا حيث زرت أوليفر وزوجته. وكانت أمريكا هى وجهتى بعد ذلك لأننى كنت سأتوقف فى إنجلترا مرة أخرى فى طريق عودتى للاجتماع بثاتشر.

وفى نيويورك ازدحم حوالى مليون شخص لمشاهدة موكبنا. وقد أشعرتنى مظاهر التأييد والحماس للمعركة ضد الأبارتايد بالتواضع الجم. وفى اليوم التالى ذهبت إلى هارلم وكما قالت زوجتى إن هارلم هى سويتو أمريكا وتحدثت إلى حشد كبير فى استاد اليانكى وأخبرتهم أننا جميعا أطفال إفريقيا وذكرت لهم كيف ألهمنى هؤلاء الذين دافعوا عن حقوق السود فى أمريكا. ثم ذهبت إلى ممفيس وبوسطون وبعد ذلك إلى واشنطون لإلقاء خطاب فى الكونجرس والاجتماع بالرئيس بوش وفى حديثى أمام الكونجرس ذكرت العقوبات ودعوت الكونجرس إلى عدم تخفيفها لعلمى أن بوش كان يريد ذلك.

وحتى قبل التقائى ببوش كنت قد كونت انطباعا إيجابيا عنه فقد كان أول قائد يحادثنى تليفونيا بعد مغادرتى السجن كما أنى كنت ضمن قائمته القصيرة من زعماء العالم الذين يخبرهم بالقضايا الهامة. وكان أثناء لقائى معه ودودا رغم اختلافنا تماما بشأن قضايا الكفاح المسلح والعقوبات.

-١٠٦-

عدت إلى جنوب إفريقيا بعد توقف فى أوغندا وكينيا وموزمبيق وطلبت لقاء مع دى كلارك وكانت أعمال العنف فى البلاد قد ساءت وبلغ عدد القتلى سنة ١٩٩٠، ١٥٠٠ فرد، وبعد تشاورات مع زملائى قررنا الإسراع بعملية السلام.

وكانت قوات الحكومة قد اعتقلت أربعين من المؤتمر بدعوى أنهم ضمن أعضاء مؤامرة للحزب الشيوعى للإطاحة بالحكومة. ودعانى دى كلارك إلى اجتماع عاجل وقرأ علىّ من وثائق ادعى أنها صودرت أثناء الغارة. واتصلت بجو سلوفو الذى قال لى إن ما قرأه دى كلارك كان مقتطعا من السياق وأن العملية التى يتحدثون عنها هى عملية قديمة وأن هدف الحكومة هو فصل الحزب الشيوعى عن المؤتمر وإبعاد جو سلوفو عن المفاوضات. وعدت إلى دى كلارك وأخبرته أن شرطته قد خدعته وأننا لا ننوى التخلى عن الحزب الشيوعى وأن سلوفو سيشارك فى المفاوضات. وفى منتصف يوليو وقبل اجتماع لجنة المؤتمر المركزية عرض على سلوفو إيقاف العمليات العسكرية لتهيئة الجو للمفاوضات ولمنح دى كلارك فرصة ليثبت لناخبيه أن سياسته قد نجحت. وعارضت الأمر فى البداية لكنى بعد تفكير رأيت أن علينا أن نأخذ المبادرة وأن تلك هى أفضل وسيلة. وبعد مناقشة المسألة عدة ساعات فى اللجنة المركزية تمت الموافقة عليها.

وفى ٦ أغسطس وقّع المؤتمر والحكومة فى بريتوريا ما عرف فيما بعد

باسم مذكرة بريتوريا التى اتفقنا فيها على إيقاف العمليات العسكرية ولكننا لم ننه المعركة المسلحة. وحددت المذكرة مواعيد الإفراج عن المعتقلين السياسيين وإصدار أنواع معينة من العفو وإتمام عملية العفو فى مايو ١٩٩١. ووافقت الحكومة أيضا على إعادة النظر فى قانون الأمن الداخلى.

وكانت أكثر العوامل المعرقلة هى تصاعد أعمال العنف. وكانت الشرطة وقوات الأمن لا تلقى القبض إلا على القليل من مرتكبى تلك الأعمال وكان سكان المناطق الإفريقية يتهمون الشرطة بمساعدة وإثارة العنف وأصبح من الواضح أن هناك تواطؤاً من جانب الشرطة وقوات الأمن.

وقال لى سكان مناطق الأفارقة إن الشرطة تقوم بمصادرة الأسلحة من جهة ثم تقوم الإنكاثا بالهجوم عليهم بنفس الأسلحة المصادرة. وفى سبتمبر ألقيت خطابا قلت فيه إن هناك يدا خفية ثالثة وراء أعمال العنف تستهدف المؤتمر ومعركة التحرير.

وكنت قد وصلت إلى تلك النتيجة بعد أن خبرت شخصيا حادثين متماثلين. ففى مايو ١٩٩٠ تلقى المؤتمر معلومات أن ساكنى أحد بيوت الشباب المملوكة للإنكاثا كانوا يخططون لهجمة كبيرة على أعضاء من المؤتمر فى منطقة إفريقية يوم ٢٢ يوليو وقمنا بإبلاغ وزير العدل ومدير الشرطة وقائد الشرطة المحلى عن طريق محامينا طالبين اتخاذ الإجراءات وطلبنا من الشرطة أن تمنع أعضاء الإنكاثا من دخول المنطقة لحضور تجمع لهم. وفى ٢٢ يوليو دخلت المنطقة حافلات محملة

برجال الإنكاثا المسلحين ترافقهم عربات شرطة فى وضح النهار. وبعد التجمع ذهب الرجال المسلحون فى حالة هرج وقتلوا ما يقرب من ثلاثين شخصا فى هجوم رهيب وقد قمت بزيارة المنطقة فى اليوم التالى ورأيت مناظر لم أرها من قبل ولا أتمنى أن أراها بعد ذلك فقد رأيت جثثا قطعت إربا حتى مات أصحابها وكانت هناك امرأة قد قطع ثدياها بمدية.

وطلبت لقاء مع دى كلارك فى اليوم التالى وسألته غاضبا إيضاحا. ولم يجب ولم يقدم تفسيرا.

وكان الحادث الثانى مماثلا إلا أنه بالإضافة إلى القتل قام الإنكاثا بطرد أفراد المؤتمر من معسكر مقام على قطعة أرض فى إحدى مناطق الزولو واحتلوا أكواخهم واستولوا على ممتلكاتهم وقرر سكان المنطقة أن قوات الشرطة كانت ترافق الإنكاثا.

وفى خلال تلك الفترة قامت الحكومة بفعل أشعل الوضع فقد أقرت حمل الزولو لما يسمى بأسلحتهم التقليدية وهى عبارة عن الرماح والعصى ذات الرءوس الغليظة التى كانوا يقتلون بها رجال المؤتمر.

وقد استفاد من تيارات العنف تلك هؤلاء الذين كانوا يعارضون التفاوضات وعملوا على إشعال حرب بين المؤتمر والإنكاثا. وعمد رجال الحكومة ومن بينهم دى كلارك إلى تجاهل الوضع ولم يكن هناك شك أن مسئولى الشرطة على أعلى مستوى كانوا يساعدون تلك القوة الثالثة وتأكدت الشكوك حينما ظهرت تقارير صحفية كشفت أن شرطة

جنوب إفريقيا كانت تمد الإنكاثا بالدعم المادى.

وتصاعد العنف. وبدأت أراجع قرار تعليق الكفاح المسلح. وتململ الكثيرون من أعضاء المؤتمر.

-١٠٧-

وفى ديسمبر ١٩٩٠ عاد أوليفر إلى جنوب إفريقيا بعد ثلاثة عقود فى المنفى. وذهب لحضور اجتماع استشارى للمؤتمر فى جوهانسبرج حضره أكثر من ألف وخمسمائة مندوب من جميع المناطق فى الداخل والخارج.

وتكلمت مادحا أوليفر رجلا قاد المؤتمر إبان ساعاته الحالكة ولم يترك الشعلة تخبو وقادنا إلى مستقبل يبدو مضيئا ومليئا بالأمل. وكان هو الذى أنقذ المؤتمر خلال الأعوام السبعة والعشرين التى قضيتها فى السجن، وأنشأ منظمة دولية ذات قوة وتأثير فقد كان جنديا ودبلوماسيا ورجل دولة.

وأحدث خطاب أوليفر عاصفة فقد دعا إلى إعادة تقييم العقوبات الدولية وقال إن المؤتمر يواجه تهديدا بالتهميش الدولى إذا لم يأخذ المبادرة لتخفيف العقوبات وأن منظمة الوحدة الأوروبية قد بدأت فعلا فى تخفيف العقوبات وأن دول الغرب خاصة بريطانيا وأمريكا تريد مكافأة دى كلارك على إصلاحاته. ورغم أننا شعرنا بخطأ تلك الاستراتيجية فقد كان علينا الاعتراف بالواقع الدولى.

ورغم أن خطاب أوليفر نوقش و ووفق عليه من قبل المؤتمر إلا أن اقتراحه قوبل بالغضب من مناضلى المؤتمر الذين أصروا على أن تبقى العقوبات كما هى. واتهمنى هؤلاء واتهموا المفاوضين بعدم التلاحم مع القاعدة وبأننا نقضى وقتنا مع قادة الحزب القومى أطول من ذاك الذى نقضيه مع شعبنا. كما وُجه إلى النقد فى الاجتماع للدخول فى ديبلوماسية شخصية وعدم إبلاغى جميع الأعضاء بما يحدث. وتقبلت ذلك النقد مبديا موافقتى عليه ولكنى كنت أعلم حساسية المحادثات وأن أى اتصالات نصل إليها تعتمد جزئيا على سريتها. لكنى عرفت أن علىَّ أن أخبر عددا أكبر من الأشخاص بما يحدث.

وكانت الصحف تمتلئ كل يوم بتقارير جديدة عن أعمال العنف الدموية فى مناطق الأفارقة. وفى أماكن عدة جعل خليط من الجريمة والتنافس السياسى ووحشية الشرطة وفرق الموت الحياة قاسية لا تحتمل.

ولمواجهة ذلك اتصلت بالرئيس بوتيليزى والتقينا فى دربان فى يناير وتحدث بوتيليزى إلى المندوبين المجتمعين وإلى الصحافة وفتح جروحا قديمة وذكر قائمة بالهجوم اللفظى للمؤتمر عليه وانتقد مطالب المؤتمر فى المفاوضات. وحينما تكلمت شكرته على مجهوداته طوال السنين للإفراج عنى وذكرت أموراً توحد منظماتنا بدلا من أن تفرقها.

وحدث تقدم أثناء محادثاتنا الفردية ووقعنا اتفاق قواعد للسلوك لكل من المنظمتين وكان اتفاقا عادلا كان من الممكن أن يوقف نزيف الدم

لو نفذ. ولكن إنكاثا لم تحاول تنفيذ الاتفاق. واستمر العنف بين المنظمتين ولم تفعل الحكومة شيئا للقبض على المعتدين. والتقيت مرة أخرى فى أبريل بوتيليزى وأصدرنا بيانات ووقعنا اتفاقية أخرى أغرقت هى الأخرى فى الدماء. وكنت مقتنعا أن الحكومة وراء كثير من أعمال العنف.

وفى إبريل وفى اجتماع اللجنة المركزية الذى استمر يومين ناقشت شكوكى بشأن دى كلارك. وفى خطاب مفتوح إلى الحكومة دعونا إلى فصل ماجناس مالان وزير الدفاع وأدريان ثلوك وزير العدل والنظام وإلى منع حمل الأسلحة التقليدية وغير ذلك من الاقتراحات بما فيها تكوين لجنة مستقلة لبحث شكاوى سوء التصرف لقوات الأمن. وأعطينا الحكومة مهلة إلى مايو لإجابة مطالبنا ورد دى كلارك بالدعوة إلى مؤتمر لجميع الأحزاب يعقد فى مايو لمناقشة العنف. ولكننى رددت بأن ذلك عديم الجدوى لأن الحكومة تعرف تماما ما عليها فعله لإنهاء العنف. وفى مايو أعلنا تعليق المحادثات مع الحكومة.

وفى يوليو ١٩٩١ عقد حزب المؤتمر مؤتمره السنوى داخل جنوب إفريقيا لأول مرة منذ ثلاثين عاما. وحضر الموتمر ٢٢٤٤ مندوبا لهم حق التصويت تم انتخابهم بطريقة ديموقراطية فى أفرع المؤتمر فى الداخل والخارج وتم انتخابى رئيسا للمؤتمر وانتخب سيرل رامفوسا سكرتيرا عاماً وكان ذلك دليلا على أن الشعلة بدأ تمريرها إلى القيادات الشابة.

وفى خطابى ذكرت أن النقطة التى يجب فهمها بوضوح هى أن المعركة لم تنته وأن المفاوضات نفسها مسرح للمعركة.

وكان لابد أن نبدأ المفاوضات فلم يكن فى مصلحتنا تمديد عذاب الأبارتايد فقلت إن من الضرورى تكوين حكومة انتقالية فى أسرع وقت.

وفى المؤتمر تم تحديد أكثر المهام أهمية وصعوبة وهى تحويل حركة التحرير السرية غير القانونية إلى حزب سياسى جماهيرى وكان علينا إعادة هيكلة منظمة بكاملها من أصغر فرع محلى إلى اللجنة القومية المركزية فى خلال شهور.

وعاد جزء كبير من قيادات المؤتمر والحزب الشيوعى من المنفى لحضور المؤتمر ولم يكونوا يعرفون جنوب إفريقيا الجديدة فقد كانت أرضا تم اكتشافها حديثاً بالنسبة لى ولهم وكان هناك حصاد من القيادات الشابة من الجبهة الديموقراطية والاتحادات التجارية الذين بقوا داخل البلاد وكانوا على إلمام بالوضع السياسى بطريقة لا نعرفها نحن. وكانت تلك المنظمات بديلة للمؤتمر فى الثمانينيات وكان على المؤتمر دمج هؤلاء النساء والرجال فى المنظمة.

وكانت هناك المشاكل الفلسفية أيضا فإنه بالإمكان توحيد الحركة أثناء حرب مع العدو المشترك لكن إيجاد سياسة على مائدة المفاوضات أمر مختلف فإنه كان علينا ليس فقط أن ندمج مجموعات عديدة فى المؤتمر ولكن أيضا كان علينا دمج آراء مختلفة.

وخلال السبعة عشر شهرا الأولى من النشاط القانونى أمكن للمؤتمر ضم ٧٠٠,٠٠٠ عضو وكان ذلك عددا لا بأس به، لكن نسبة الأعضاء من المناطق الريفية، تلك المناطق التى ظل المؤتمر فيها ضعيفا، كانت قليلة، وفى نفس الوقت فتح حزب القوميين أبوابه لغير البيض محاولا استقطاب الهنود والملونين.

ومنذ الإفراج عنى استمرت حملة الدولة لتشويه سمعة زوجتى. فبعد حادث اختطاف الشباب الأربعة المزعوم ووفاة أحدهم تم تشويه سمعتها بحملة شائعات وبعد ذلك وجهت إليها أربعة اتهامات خطف وتهمة اعتداء. وبلغ التشهير بها درجة أصبحنا فيها ننتظر يوم محاكمتها لتظهر براءتها.

وبدأت محاكمة زوجتى فى فبراير فى محكمة راند العليا فى جوهانسبرج. وحضرت المحاكمة فى يومها الأول وكذلك حضرها عدد من كبار أعضاء المؤتمر وتوالى حضورى كلما استطعت وفعلت ذلك لمؤازرتها لإظهار إيمانى ببراءتها. وتولى جورج بيزوس الدفاع عنها باقتدار. وحاول إثبات أن وينى لم تتورط فى عملية الخطف أو الضرب. وبعد ثلاثة أشهر ونصف حكم القاضى بإدانتها فى اتهامات الخطف وتحريضها على الاعتداء وحكم عليها بالسجن ست سنوات لكن أفرج عنها بكفالة انتظارا لاستئنافها. أما بالنسبة لى فلم تكن براءتها أبدا موضع شك.

-١٠٨-

وفى ديسمبر ١٩٩١ بدأت المفاوضات الحقيقية فى جوهانسبرج فى مركز التجارة الدولية وعُقد «المؤتمر من أجل جنوب إفريقيا ديموقراطية» وسمى CODESA، أول اجتماع للمفاوضات الرسمية بين حزب المؤتمر وأحزاب جنوب إفريقية أخرى والحكومة وكان الاجتماع يضم ثمانية عشر وفدا تمثل جميع الاتجاهات السياسية فى جنوب إفريقيا بالإضافة إلى مراقبين من الأمم المتحدة والكومنولث والمجموعة الأوروبية ومنظمة الوحدة الإفريقية. وكان غالبية الممثلين من السود.

وكان وفْد الإعداد برئاسة سيريل رامافوسا وعضوية جو سلوفو وثالى موسى قد عقد اجتماعات أسبوعية مع الحكومة حول قضايا الانتخابات والدستور والمجلس التأسيسى والحكومة الانتقالية. وكانت وفود عشرين حزبا مختلفا بما فيهم حكومات المواطن قد اتفقوا على أسس المؤتمر.

وقاطعت الـPAC الاجتماعات متهمة حزب القوميين والمؤتمر بالتآمر لإقامة حكومة متعددة الأعراق كما قاطع الرئيس بوتيليزى المحادثات بحجة أنه لم يسمح له بإرسال ثلاثة وفود.

ولم يَسُد المركز التجارى الدولى إحساس بالتاريخ فقط بل أيضا إحساس بالاعتماد على الذات. فخلافا لمفاوضات فى دول إفريقية أخرى استلزمت وجود وسطاء خارجيين كنا فى جنوب إفريقيا نسوى

خلافاتنا بأنفسنا. وتحدث دى كلارك عن الحاجة إلى حكومة انتقالية تتقاسم فيها السلطة على أساس ديموقراطى.

وفى ملاحظاتى الافتتاحية ذكرت أنه مع فجر CODESA فإن التقدم فى جنوب إفريقيا أصبح لا رجعة عنه. فقد اجتمعنا لإيجاد سلطة شرعية وأضفت أن CODESA علامة على بداية الطريق إلى مجلس منتخب يكتب دستورا جديدا. وأننى لا أرى سببا لعدم حدوث مثل تلك الانتخابات للمجلس التشريعى عام ١٩٩٢. ثم أهبت بالحكومة أن تشكل حكومة وحدة وطنية انتقالية للإشراف على الانتخابات ومراقبة إعلام الدولة والجيش والإشراف بعامة على الانتقال إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية لا عنصرية.

وفى اليوم الأول تم الاتفاق على إعلان نوايا تلتزم فيه جميع الأطراف بتأييد جنوب إفريقيا غير مقسمة، قانونها الأعلى دستور يضمن سلامته نظام قضائى مستقل. وأن يضمن النظام القانونى للبلاد المساواة أمام القانون وأن يوضع ميثاق لحماية الحقوق والحريات المدنية. والخلاصة أن تكون هناك ديموقراطية تعددية.

وأوجد المؤتمر خمسة فرق عمل تجتمع فى أوائل ١٩٩٢ لتمهيد الطريق لجولة أخرى من CODESA فى مايو ١٩٩٢ وكان على المجموعات بحث مسألة خلق مناخ حرية سياسية، ومستقبل المواطن، وبحث مبادئ دستورية مختلفة كالفدرالية وإعادة تشكيل هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وتشكيل حكومة انتقالية ووافقت الأحزاب على أن تتخذ القرارات بناء

على الإجماع الكافي.

وكان دى كلارك قد طلب منى أن تكون له الكلمة الختامية التى كان من المفروض أن ألقيها أنا فى نهاية اليوم. وأقنعت اللجنة المركزية بذلك رغم معارضتها. وفى كلمته بدأ دى كلارك الهجوم على حزب المؤتمر لعدم محافظته على الاتفاقات التى عقدها مع الحكومة ووبخه على عدم الكشف عن مخابئ الأسلحة وعلى الإبقاء على جيش خاص وعلى الـMK. وبلهجة شديدة أبدى تشككه فيما إذا كان لدى المؤتمر من الشرف ما يجعله يلتزم بأى اتفاق يوقعه.

وقررت ألا تكون كلمته هى الأخيرة. فسرت إلى المنصة وفى صوت نم عن غضبى قلت إننى منزعج من تصرف دى كلارك فإنه لم يكن أمينا فى هجومه. فحتى رئيس لنظام سيئ السمعة وغير شرعى كنظامه لابد وأن يلتزم بمعايير أخلاقية. فإن رجلا يأتى إلى اجتماع من هذا النوع ويمارس تلك الألاعيب السياسية لا يود أن يتعامل معه إلا القليلون جدا. وأضفت أن أعضاء الحكومة أقنعونا أن تكون لهم الكلمة الختامية واتضح الآن لماذا أرادوا ذلك فقد أساء دى كلارك استعمال مركزه لأنه كان يأمل ألا أجيب ولكنه أخطأ. ثم مضيت أعدد خرق الحكومة جميع الاتفاقيات كما سبق ذكره. وأضفت أننى قد أخبرته أننا سنسلم أسلحتنا فقط حينما نصبح جزءا من الحكومة التى تتولى جمع تلك الأسلحة. وأضفت أن للحكومة جدولين مختلفين للأعمال فهى لا تستعمل المفاوضات لإقرار السلام ولكن لتحقيق أهدافها السياسية التافهة. فقد كانت أثناء المحادثات تمول منظمات ارتكبت أعمال عنف

ضدنا، وذكرت ما كان قد تكشف حديثا عن دفع مليون راند لإنكاثا الأمر الذى ادعى دى كلارك أنه لا يعرف شيئا عنه وإن كان ذلك صحيحا فإنه غير أهل ليكون فى منصبه. واختتمت قائلا إننى على استعداد للعمل معه رغم أخطائه. وفى الجلسة النهائية فى اليوم حاول كلانا التظاهر أن ما حدث ليس شيئا لا يمكن تقويمه وتصافحنا فى بداية الجلسة لكن كثيرا من الثقة كانت قد فُقدت وسادت المحادثات حالة من الفوضى.

وبعد ستة أسابيع من افتتاح CODESA خسر القوميون مقعدا فى دائرة محافظة كانت تعتبر إحدى معاقلهم لصالح حزب المحافظين الذى كان يعارض سياسة التفاوض مع المؤتمر. وبدت نتيجة الانتخابات وكأنها تلقى بظلال الشك على سياسة دى كلارك الإصلاحية والتفاوضية.

وقرر دى كلارك أن يغامر فأعلن أنه سيدعو إلى استفتاء يوم ١٧ مارس لكل البيض فى أنحاء الأمة للتصويت على سياسته. وقرر أنه إذا هزم فسيستقيل من منصبه. وفى نهاية الحملة صوت ٦٩٪ من البيض لصالح المفاوضات. ومع شعوره بقوة مركزه تشدد الحزب القومى فى مركزه التفاوضى.

-١٠٩-

فى ١٣ إبريل وفى مؤتمر صحفى جلس فيه أوليفر ووولتر إلى جانبى أعلنت انفصالى عن زوجتى فقد أصبح الموقف من الصعوبة لدرجة

أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف: المؤتمر ووينى والأسرة أن نفترق. ورغم أننى ناقشت الموضوع مع المؤتمر فقد كان الانفصال لأسباب شخصية. وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقتنا والتضحيات التى تحملتها وشجاعتها وإخلاصها وأضفت أنه نظرا للتوترات التى نشأت فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافنا على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الإعلام؛ لأنها كانت ومازالت تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتها.

وأضفت أننى ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج والأب. ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها. فقد تزوجت رجلا سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة وعند عودة الأسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل.

-١١٠-

وفى مايو ١٩٩٢ عقد المجلس المتعدد الأطراف دورته الثانية فى المركز التجارى الدولى وكان قد تم الإعداد لـCODESA عن طريق اجتماعات سرية بين المتفاوضين.

وكانت الحكومة قد تعرضت لفضيحتين قبل يومين من بداية

CODESA. كانت الأولى تتضمن كشف فساد هائل ورشوة فى مصلحة مساعدة التنمية المسئولة عن تحسين حياة السود فى المواطن والثانية كانت تخص تورط مسئولى أمن كبار فى مقتل أربعة من مناضلى الجبهة الديموقراطية المتحدة عام ١٩٨٥، وأشهرهم ماثيو جونيوى هذا بالإضافة إلى دلائل تورط الشرطة فى أعمال القتل فى ناتال والشكوك حول قيام المخابرات العسكرية بتدبير عمليات سرية ضد المؤتمر وبينما قوضت هاتان الفضيحتان مصداقية الحكومة فإنهما أدتا إلى تقوية مركزنا.

وبعد مناورات مع الحكومة توصلت فرق الحكومة والمؤتمر إلى اتفاق مبدئى يتعلق بفترة انتقال من مرحلتين تقود إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية تماماً.

فى المرحلة الأولى يعين مجلس تنفيذى متعدد الأحزاب من قِبل CODESA تكون وظيفته إنشاء حكومة مؤقتة ليمهد المجال لجميع الأحزاب ويأتى بدستور انتقالى. وفى المرحلة الثانية تجرى انتخابات لمجلس تأسيسى وتشريعى حيث تشترك جميع الأحزاب التى تحصل على ٥٪ من الأصوات فأكثر فى مجلس للوزراء ويتم انتخاب نصف المجلس على أساس قومى ونصفه الآخر على أساس إقليمى، ويعطى المجلس سلطة صياغة دستور جديد وإجازة التشريعات.

وكانت هناك نقاط خلاف عديدة بين المؤتمر والحكومة وأعاقت تلك النقاط CODESA وفى نهاية اليوم الأول وصل الاجتماع إلى طريق

مسدود وشهد اليوم الثانى نفس النهاية رغم المحاولات وكان ذلك فى رأيى لعدم رغبة حزب القوميين أن يُخضعوا قدرهم لإرادة الأغلبية.

وفى النهاية انهار، CODESA بسبب أربع نقاط رئيسية وهى إصرار الحكومة على نسبة كبيرة غير مقبولة من الأصوات فى المجلس للموافقة على الدستور، ووجود قوى إقليمية راسخة سيكون لها قولها فى الدستور، وقيام مجلس شيوخ غير ديموقراطى وغير منتخب يتمتع بقوة الفيتو على تشريعات المجلس الأساسى، والتصميم على جعل الدستور الانتقالى دستورا دائما.

ورغم ذلك وافقت الحكومة والمؤتمر على مواصلة المحادثات الثنائية لكن أمورا تدخلت لجعل ذلك مستحيلا.

وبتوقف المحادثات اتفق المؤتمر وحلفاؤه على عمل جماهيرى يبرهن للحكومة مدى مؤازرة الجماهير لنا وعلى أن شعب جنوب إفريقيا غير مستعد للانتظار إلى الأبد ليحصل على حريته. وكانت تلك الأعمال تتكون من إضرابات ومظاهرات ومقاطعات. واختير يوم ٢٦ يونيو ١٩٩٢ لبدء الأعمال الجماهيرية، وهو يوم ذكرى ثورة سويتو وتقرر أن تصل الحملة ذروتها بإضراب عام يومى ٣، ٤ أغسطس.

ولكن وقعت حادثة قبل ذلك سببت شقاقا أكبر بين الحكومة والمؤتمر. ففى ليلة ١٧ يونيو ١٩٩٢ أغارت قوة مسلحة من الإنكاثا سرا على منطقة للأفارقة فى المؤتمر وقتلت ٤٦ شخصاً معظمهم من الأطفال والنساء ولم تفعل الحكومة شيئا لمنع الجريمة أو للقبض على مرتكبيها.

ووجدت أن تلك هى القشة الأخيرة.

وتحدثت إلى جمهور من عشرين ألفا من مؤيدى المؤتمر الغاضبين بعد الجريمة بأربعة أيام وقلت لهم إننى أصدرت الأوامر إلى سيريل رامافوسا السكرتير العام للمؤتمر بإيقاف أى تعاملات مع الحكومة وأعلنت عن اجتماع عاجل للجنة التنفيذية وحذرت دى كلارك أنه إن حاول فرض إجراءات جديدة لتقييد المظاهرات أو التعبير الحر فإن المؤتمر سيبدأ حملة تحد على مستوى الأمة أكون أنا فيها أول المتطوعين.

وكانت اللافتات التى حملها المتجمهرون تنادى باستعمال السلاح والتخلى عن المحادثات. وتفهمتُ عواطف الجماهير التى كانت تريد إسقاط الأبارتايد وكانت قد سئمت المفاوضات. وكان العمل الجماهيرى فى تلك اللحظة طريقا وسطا بين المفاوضات والكفاح المسلح.

وأبلغنا الحكومة أننا قد أوقفنا المحادثات وأرسلنا إلى دى كلارك مذكرة بأسبابنا وبالإضافة إلى طلبنا حل القضايا الدستورية التى أعاقت CODESA طالبنا بتتبع المسئولين عن العنف ومحاكمتهم. ورد دى كلارك بطلب اجتماع معى فرفضت.

وبلغت الحملة الجماهيرية ذروتها يوم ٣، ٤ أغسطس بالإضراب مساندة لمطالب المؤتمر فى المفاوضات واحتجاجا على أعمال العنف التى تساندها الدولة وامتنع أربعة ملايين عامل عن الذهاب إلى

أعمالهم وكان ذلك أكبر إضراب فى تاريخ جنوب إفريقيا ثم نظمنا مسيرة من مائة ألف فرد إلى مقر الحكومة فى بريتوريا حيث عقدنا تجمعا هائلا خارج المبنى قلت فيه للجماهير إننا سنحتل يوما تلك المبانى كأول حكومة ديمقراطية منتخبة فى تاريخ جنوب إفريقيا.

وهدد دى كلارك باتخاذ خطوات مضادة فحذرته أن أى عمل غير ديموقراطى سيكون له عواقب خطيرة. وأضفت أنه بسبب مثل تلك التهديدات يجب إقامة حكومة انتقالية.

وبعد حدوث مذبحة أخرى فى بيشو بين المتظاهرين من أنصار المؤتمر من قبل رجال حكومة إحدى البانتوستانات اجتمعت ودى كلارك لمحاولة إيجاد أرضية مشتركة لتحاشى تكرار مثل تلك المأساة.

وبدأ المتفاوضون فى الاجتماع بانتظام. وفى ٢٦ سبتمبر اجتمعت أنا ودى كلارك فى قمة رسمية وفى ذلك اليوم وقعنا اتفاقا كان بمثابة قالب لكل المفاوضات التى تلته واتفقنا على ما طالب به المؤتمر لمنع أعمال العنف ولكن الأهمية الحقيقية لتلك الاتفاقية هى أنها فتحت الطريق المسدود الذى وصلت إليه CODESA ووافقت الحكومة على مطالبنا الدستورية ولم يبق سوى تحديد يوم الانتخابات للمجلس التأسيسى ونسبة الأغلبيات اللازمة لاتخاذ قراراته. وقد حفزت الاتفاقية الإنكاثا على الانسحاب من المفاوضات وقطع الرئيس بوتيليزى علاقته بالقوميين وكون تحالفا مع مجموعة من قادة البانتوستانات المشبوهين ومع أحزاب يمينيه بيضاء كان هدفه إقامة

مواطن للأفريكان.

وتقدم چو سلوڤو بمبادرة لتكوين حكومة وحدة وطنية. وكان قد نشر بحثا فى أكتوبر قال فيه إن المفاوضات مع الحكومة ليست مفاوضات وقف قتال نُملى فيه شروطنا على عدو تم قهره. فإن المؤتمر قد يحتاج إلى سنوات للإمساك بجميع نواصى أمور الحكومة فى جنوب إفريقيا حتى بعد إجراء انتخابات، وأن حكومة من المؤتمر ستحتاج كثيرا من الموظفين المدنيين الحاليين لتسيير أمور البلاد. واقترح جو إضافة فقرة تسمح بإقامة حكومة وحدة وطنية تتضمن تقاسم السلطة مع حزب القوميين لفترة ينص عليها، مع عفو عام عن ضباط الأمن واحترام لعقود الموظفين المدنيين. وكان تعبير تقاسم السلطة فى ذلك السياق يعنى فقط أن القوميين سيشاركون فى أية حكومة منتخبة طالما حصلوا على أصوات كافية.

وبعد مناقشات عديدة أيدت اقتراح چو ووافقت عليه اللجنة المركزية فى ١٨ نوفمبر على شرط عدم السماح بالڤيتو لأحزاب الأقلية. وبدأنا محادثات ثنائية مدتها خمسة أيام وكانت حرجة لأنها سارت على الأسس التى أقرتها الاتفاقية المبدئية. واتفقنا مبدئيا على حكومة وحدة وطنية مدتها خمس سنوات تشترك فيها كل الأحزاب التى تحصل على أكثر من خمسة فى المائة من الأصوات بنسبة تمثيل فى مجلس الوزراء. وبعد السنوات الخمس تصبح الحكومة حكومة أغلبية عادية. وفى فبراير أعلن المؤتمر والحكومة اتفاقهما على مبدأ حكومة الوحدة الوطنية لخمس سنوات وعلى مجلس وزراء متعدد الأحزاب وعلى إيجاد

مجلس تنفيذى انتقالى وإجراء الانتخابات بنهاية ١٩٩٣.

-١١١-

وكنت قد قررت بناء منزل لى فى قونو وتم البناء فى فبراير ١٩٩٣ وذهبت هناك فى إبريل لإجازة قصيرة. وفى صباح ١٠ أبريل تلقيت مكالمة هاتفية عاجلة وعلمت أن كريس هانى أحد أعضاء MK السابقين البارزين وأحد أعضاء المؤتمر نوى الشعبية الكبيرة قد توفى إثر إطلاق الرصاص عليه فى جوهانسبرج. كان موته لطمة لى وللمؤتمر فقد كان جنديا للمهام الصعبة وكان بطلا لشباب جنوب إفريقيا يتحدث لغتهم وينصتون إليه. وكان هناك خوف من ثورة شباب انتقامية فأسرعت أولا بالذهاب لتعزية والده فى ترانسكى وعند عودتى علمت أن الشرطة قد ألقت القبض على أفريكانى من المهاجرين البولنديين بعد أن أبلغت امرأة أفريكانية شجاعة عن رقم سيارته. وكان المقصود من الاغتيال تعطيل المحادثات. وحاول المؤتمر تهدئة الموقف فطلب منى أن أتحدث إلى الأمة. وفى حديثى ذكرت أن القاتل رجل أبيض ملئ بالكراهية جاء إلى بلادنا وارتكب عملا قبيحا شريرا وأن امرأة بيضاء جازفت بحياتها ليلقى القاتل جزاءه وأن الوقت قد حان لجميع مواطنى جنوب إفريقيا أن يتحدوا لتحقيق ما بذل كريس هانى حياته من أجله وهو الحرية لنا جميعا.

وكان اغتيال كريس محاولة من جماعات سيادة البيض لوقف ما لا مفر من حدوثه فقد كانوا يفضلون أن تعانى البلاد حربا أهلية من أن

تحكم الأغلبية عن طريق الوسائل السلمية. ولنمنع انفجار أعمال العنف نظم المؤتمر تجمعات وتظاهرات فى كل أنحاء البلاد ليعبر من خلالها الناس عن إحباطاتهم وعلمنا بعد أيام أن أحد أعضاء حزب المحافظين قد ألقى القبض عليه لعلاقته بالجريمة وكان ذلك تأكيدا لوجود قوة ثالثة. وبعد أسبوعين حدث أمر هزنى شخصيا فقد توفى أوليفر بجلطة مفاجئة.

يصنف أفلاطون الناس إلى ثلاث مجموعات من الذهب والفضة والرصاص. وكان أوليفر ذهبا خالصا سواء فيما يختص بتألقه الفكرى أو دفئه أو آدميته أو تسامحه وكرمه أو فى ولائه وتضحيته. وكنت أحبه كرجل بالقدر الذى كنت أحترمه كقائد وشعرت بالحرمان لفقده. ورغم أننا لم نكن فى السلطة فقد أردت لأوليفر جنازة رسمية. ونظم المؤتمر الجنازة ونظم أيضا تجمعا فى استاد سويتو حضره العديدون من الشخصيات الأجنبية الذين جاءوا ليقدموا الواجبات الأخيرة للرجل الذى أبقى المؤتمر حيا أثناء سنوات نفيه.

-١١٢-

وفى يوم ٢٧ إبريل عام ١٩٩٤ وفى مؤتمر متعدد الأحزاب فى المركز التجارى حدد موعد أول انتخابات وطنية لاعنصرية قائمة على أساس صوت لكل فرد. وكان قد تم الاتفاق على انتخاب أربعمائة من الممثلين لمجلس تأسيسى يقوم بوضع الدستور ويكوّن برلمانا ويكون أول عمل له انتخاب رئيس للجمهورية. وكان قد اشترك فى الاجتماع ستة وعشرون

حزبا من ضمنها إنكاثا وPAC والمحافظين. وكان الرئيس بوتيليزى يطالب بسلطة أقوى للأقاليم بينما كان الحزب المحافظ يرى أن قراراتنا السابقة تعادى مصالح الأفريكان. وتكوّنت ما عرف بالجبهة الشعبية للأفريكان لمطالبة بوطن للبيض. وفى ١٨ نوفمبر تم الاتفاق على دستور انتقالى وأصبحنا على أعتاب مرحلة جديدة.

ولم أكن أبدا أهتم بالجوائز الشخصية فإنه لا يليق بالمقاتل من أجل الحرية أن يأمل فى كسب جوائز ولكن حينما أُخبرت أنى نلت جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع دى كلارك تأثرت كثيرا لأن للجائزة معنى خاصا فى جنوب إفريقيا حيث كانت قد منحت للرئيس لوثولى عام ١٩٦٠ كما منحت للأسقف توتو الذى حارب شرور العرقيه إبان الأيام الرهيبة للأبارتايد.

وكنت أكن احتراما كبيرا لشعبى النرويج والسويد، فأثناء الخمسينيات والستينيات رفضت جميع الدول الغربية مساعدتنا ومنحنا إعانات. ولكننا لقينا ترحيبا حارا فى السويد والنرويج ومُنحنا مساعدات ومِنحاً دراسية وأموالا للدفاع القانونى ومعونات إنسانية للمسجونين السياسيين.

وبدأنا حملتنا الانتخابية بعد إقرار الدستور الجديد. ولم يمنحنا ذلك فرصة كبيرة لأن القوميين كانوا قد بدأوا حملتهم فى اليوم الذى تم فيه الإفراج عنى. ورغم أن استطلاعات الرأى أثبتت تفوق المؤتمر فلم ننتظر للنصر على أنه أمر مسلم به وكنت أنصح الجميع بعدم التفاؤل

الزائد. فقد كنا فى مواجهة حزب منظم وممول جيدا.

وقاد حملتنا الانتخابية بوبو موليف و«رعب» ليكوتا وكيتسو جوردهان وكلهم من مناضلى الجبهة الديموقراطية السابقين وكانوا خبراء فى تعبئة الجماهير. وكانت المهمة صعبة. فقد قدرنا عدد الناخبين بعشرين مليونا كان معظمهم يدلى بصوته لأول مرة وكان الكثير من أصحاب الأصوات لدينا أميين وكان من الممكن أن يصيبهم الخوف من مجرد فكرة التصويت. وقررنا أن ندرب أكثر من مائة ألف شخص للمساعدة فى تثقيف الناخبين.

وكانت المرحلة الأولى تعرف باسم مؤتمرات الشعب حيث يسافر مرشحو المؤتمر فى جميع أنحاء البلاد ليعقدوا اجتماعات فى المدن والقرى لكى يستمعوا الآمال ومخاوف وشكاوى شعبنا. وكنت أحضر ثلاثة أو أربع مؤتمرات يوميا. وكان الناس أنفسهم يستمتعون بها. فلم يحدث أن ذهب أحد إليهم ليسألهم عما يجب فعله فى بلدهم. وبعد جمع الاقتراحات كنا نسافر لننقل للناس رسالتنا وكنا قد قررنا أن نقدم لهم تصورنا عن جنوب إفريقيا التى نودها بدلا من أن نطالبهم أن ينتخبونا على أساس أننا حررناهم فقد كنت أشعر أن حملتنا يجب أن تكون عن المستقبل وليس عن الماضى.

صاغ المؤتمر وثيقة من مائة وخمسين صفحة عرفت باسم برنامج إعادة البناء والتنمية الذى لخص خطتنا فى خلق وظائف عن طريق الأشغال العامة وبناء مليون منزل جديد مزودة بالكهرباء والصرف

الصحى وتوسيع مدى الرعاية وعشر سنوات من التعليم المجانى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا وإعادة توزيع الأرض عن طريق محكمة استحقاقات للأرض وإلغاء الضرائب على المواد الغذائية الأولية. وقد أعيد ترجمة تلك الوثيقة بطريقة مبسطة على هيئة مانيسفتو سمى «حياة أفضل للجميع» وأصبح ذلك شعار حملة المؤتمر.

وشعرت أيضا أننا يجب أن نخبر الشعب بما لن نستطيع عمله. فقد كان الجميع يشعرون أن الحياة يمكن أن تتغير فى أعقاب انتخابات ديموقراطية حرة. ولذلك كنت أُخبر الجماهير أنهم يجب ألا يتوقعوا أن يتملكوا سيارة مرسيدس ويكون لديهم حوض سباحتهم الخاص بعد الانتخابات. وكنت أقول لهم إنه لن يكون هناك تغيير مفاجئ سوى احترامهم لأنفسهم كمواطنين فى أرضهم وأنهم قد ينتظرون خمس سنوات لتؤتى الخطة ثمارها كما كنت أقول لهم إن عليهم أن يعملوا بجد إن أرادوا حياة أفضل «فلن نفعل ذلك لكم ولكنكم أنتم الذين ستحققونه بأنفسكم».

أما الجمهور الأبيض فكنت أقول لهم إننا نحتاجهم ولا نريدهم أن يغادروا البلاد لأنهم جنوب إفريقيين مثلنا وهذه أرضهم ولم أوفر الكلمات بشأن أهوال الأبارتايد لكنى كنت أردد أن علينا نسيان الماضى والتركيز على بناء مستقبل أفضل.

-١١٣-

لم يكن الطريق إلى الحرية أبدا سلسا. فقد انسحبت بعض الأحزاب

من المجلس التنفيذى الانتقالى ورفضت إنكاثا المشاركة فى الانتخابات وقررت تبنى سياسة المقاومة ودعا الملك كويليثينى بمؤازرة الرئيس بوثيليزى إلى وجود استقلالى لكوازولو وحاول إثناء أهل إقليمه عن التصويت. وسمى اليمين الأبيض الانتخابات خيانة وطالب بوطن مستقل للبيض.

وكان ١٢ فبراير ١٩٩٤ اليوم الأخير للتسجيل فى الانتخابات بالنسبة للأحزاب. ولم يسجل الإنكاثا والمحافظون والجبهة الشعبية الأفريكانية كما رفضت حكومة موطن بوفوثا تسوانا الاشتراك وقاومت دمجها فى جنوب إفريقيا موحدة. وكمحاولة للتسوية أدخلنا تعديلات تضمن سلطات أكبر للأقاليم. وإعادة تسمية إقليم ناتال بإقليم كوازولو ناتال مع التأكيد على أن مبدأ تقرير المصير سيتضمنه الدستور للمجموعات التى لها حضارة ولغة مشتركة.

واستعددت للقاء الرئيس بوثيليزى فى دربان فى ١ مارس وقلت إننى مستعد للركوع والتوسل إلى أولئك الذين يودون جر البلاد إلى نزيف الدم ووافق الرئيس على تسجيل مشروط فى الانتخابات مع وعد بإحالة خلافاتنا الدستورية إلى الوساطة الدولية ووافقت. وقبل انتهاء موعد التسجيل سجل الجنرال فيلجون قائد جبهة الأفريكان تحت اسم جديد وهو جبهة الحرية.

وبالرغم من أن لوكاسى مانجوبى رئيس بوفوثاتسوانا قرر أن يبقى موطنه خارج الانتخابات فقد ثارت الجماهير ضده وعم الإضراب

والفوضى واشتعلت المعارك فى الشوارع بين الشرطة الإقليمية والطلبة والعمال. وبعد ذلك تخلت عنه قواته وبعد أسابيع تم عزله وطلب الزعيم الجديد من جنوب إفريقيا تسلم موطنه. أما العنف فى ناتال فقد زاد وعمل مؤيدو إنكاثا على وقف مجهودات حملتنا فى ناتال وتم قتل وتقطيع خمسة عشر من فريق العمل الانتخابى. ولكى نبرهن على قوتنا فى ناتال قام المؤتمر بتنظيم مسيرة جماهيرية وسط دربان وحاولت إنكاثا القيام بنفس العمل فى جوهانسبرج مما كان له عواقب وخيمه. فقد نظمت إنكاثا مسيرة من أعضائها وهم يلوحون بحرابهم وعصيهم وساروا فى قلب جوهانسبرج إلى مركز للتجمع وفى نفس الوقت حاولت مجموعة منهم اقتحام مبنى شل وهو مقر المؤتمر فمنعهم الحراس. وأطلقت النيران ونجم عن ذلك مقتل ثلاثة وخمسين شخصا وأضحت البلاد على شفا حرب أهلية. وكانت إنكاثا تحاول تأجيل الانتخابات ولكن دى كلارك لم يتزحزح فقد كان الموعد مقدسا.

ووافقت على وساطة دولية برئاسة اللورد كارينجتون وكيسنجر ولكن حينما علمت إنكاثا بعدم تغيير ميعاد الانتخابات لم يقابل أحد منهم الوفود التى عادت أدراجها. وعند ذلك قبل بوتيليزى الدعوة إلى دور دستورى لملكة الزولو ووافق على الاشتراك.

وقبل التصويت بعشرة أيام تقرر عقد مناظرة تليفزيونية بينى وبين دى كلارك وأجرينا فى المؤتمر تجربة لها حيث قام الصحفى اليستر سباركس بدور كلارك.

وفى المناظرة الحقيقية هاجمت حزب القوميين ذاكرا أنهم ينشرون الكراهية العرقية بين الملونين والأفارقة فى الكيب بتوزيع كتاب مثير جعلوا فيه شعار المؤتمر «اقتل ملونا.. اقتل مزارعا» وحينما انتقد دى كلارك خطة المؤتمر لإنفاق بلايين الدولارات على الإسكان والبرامج الاجتماعية نهرته قائلا إنه يخشى أن نكرس كثيرا من ثرواتنا للسود. وفى النهاية شعرت أننى كنت عنيفا مع الرجل الذى سيكون شريكى فى حكومة وحدة وطنية فقلت إن هناك حقيقة هامة وهى أنى أعتقد أن دى كلارك وأنا مثال ساطع لأناس من أعراق مختلفة لهم ولاء واحد وحب مشترك لبلدهم رغم انتقاداتى له. ومددت إليه يدى مصافحا وأنا أقول له إننى أفخر بأن أمسك بيده لنسير إلى الأمام معاً. وبدا دى كلارك مندهشا لكنه كان مسرورا.

-١١٤-

وأدليت بصوتى يوم ٢٧ إبريل فى إقليم ناتال لأبرهن للناس هناك أنه ليس هناك خطر من الذهاب إلى صناديق الانتخاب. وبينما كنت أسير إلى مركز التصويت أخذت أفكر فى الأبطال الذين سقطوا من أجل أن أكون حيث أنا فى ذلك اليوم وفى النساء والرجال الذين ضحوا من أجل القضية التى كتب لها أخيرا النجاح: فى أوليفر تامبو وكريس هانى والرئيس لوثولى وبرام فيشر وتذكرت أبطالنا الأفارقة العظام من أمثال جوشيا جيومبيدى، وج. م فيكر، ود/عبدالله عبدالرحمن، وليليان نجوثى وهيلين جوزيف ويوسف داود وموسيس كوتانى فلم أذهب فى ذلك اليوم إلى مركز الانتخابات بمفردى ولكنى كنت أعطى صوتى

معهم جميعا.

وسارت صفوف طويلة من المواطنين الصابرين فى الطرق غير المعبدة فى المدن والقرى وكانت هناك العجائز من النساء اللاتى انتظرن طول حياتهن ليشعرن بآدميتهن وكان هناك البيض من الرجال والنساء الذين قالوا إنهم فخورون أن يعيشوا أخيرا فى بلد حر.

وتوقفت أعمال العنف وكأنما البلد قد ولد من جديد.

وفاز المؤتمر بنسبة ٦٢.٦٪ من الأصوات أقل بقليل من ثلثى الأصوات اللازمة لكى نضع الدستور بمفردنا. وشعرت بالراحة لأننا لو كنا تمكنا من وضع الدستور بمفردنا لأصبح من الممكن أن يقال إنه دستور المؤتمر وليس دستور جنوب إفريقيا. فقد أردت حكومة وحدة وطنية.

وفى مساء ٢ مايو ألقى دى كلارك خطاب تنازل لبق.. فبعد أكثر من ثلاثة قرون تقبلت الأقلية البيضاء الهزيمة وسلمت السلطة للأغلبية السوداء. وفى المساء أقام المؤتمر حفلا بالانتصار فى قاعة الرقص فى فندق كارلتون ونصحنى الأطباء بعدم الذهاب حيث كنت قد أصبت بالإنفلونزا ولكنى ذهبت حوالى التاسعة والنقيت أوجهاً باسمة سعيدة. وكانت هناك على المنصة السيدة كورتينا سكوت كينج أرملة مارتن لوثر كينج المناضل الأمريكى ونظرت إليها وأشرت إلى كلمات زوجها وقلت:

إن تلك لمن أهم اللحظات فى حياة بلدنا وإنى أقف هذا أمامكم مليئا

بالفرح والفخر بمواطنى هذا البلد المتواضعين العاديين. فلقد أبديتم تصميما هادئا صبورا أن تستعيدوا هذا البلد والآن يمكن أن نعلن فرحين من أسطح المنازل «لقد أصبحنا أخيرا أحرارا.. أخيرا أحرارا».

ومنذ اللحظات التى أُعلنت فيها النتيجة رأيت أن مهمتى هى التوفيق وخلق الثقة. وكنت أعرف أن كثيرا من الأقليات وخاصة البيض والملونين كانوا يشعرون بالقلق بشأن المستقبل وأردت أن أشعرهم بالأمان. وذكّرت الناس مرارا أن معركة التحرير ليست معركة ضد مجموعة معينة أو لون معين لكنها ضد نظام طاغ.

-١١٥-

وأشرق يوم ١٠ مايو ساطعا. وكنت فى الأيام القليلة السابقة سعيدا بحصار الأفراد المرموقين وقادة العالم الذين توافدوا ليعبروا عن احترامهم قبل حفل الافتتاح وكان للافتتاح أن يشهد أكبر تجمع لقادة العالم على أرض جنوب إفريقيا.

وأقيم الاحتفال فى مبنى الاتحاد فى بريتوريا الذى ظل لعقود مقرا لسيادة البيض وأصبح الآن مكانا للقاء مختلف الألوان والأمم لقيام أول حكومة ديموقراطية لاعنصرية فى جنوب إفريقيا.

ورافقتنى ابنتى زيناني فى ذلك اليوم. وعلى المنصة حلف دى كلارك اليمين كنائب ثان للرئيس ثم حلف مبيكى اليمين كنائب أول. ولما كان دورى تعهدت بإطاعة والتمسك بالدستور وأن أكرس نفسى لخير

الجمهورية وشعبها وخاطبت الضيوف قائلا:

إننا نحن الذين كنا خارجين على القانون لوقت قريب قد منحنا اليوم امتياز استضافة أمم العالم على أرضنا..

فقد حققنا أخيرا سيادتنا السياسية ونتعهد أن نحرر شعبنا من استمرارالعبودية للفقر والحرمان والمعاناة العرقية ومختلف أنواع التمييز.

فلن يحدث أبدا أبدا أن تتعرض تلك الأرض الجميلة لطغيان أحد على الآخر. فلن تغرب الشمس عن إنجاز إنسانى كهذا.

فلتسد الحرية.. وليبارك الله فى إفريقيا.

وبعد لحظات رفعنا جميعا أعيننا فى خشوع حيث حلقت الطائرات الحربية لجنوب إفريقيا فى تشكيلات رائعة فوق مبنى الاتحاد ولم يكن ذلك عرضا للدقة والقوة العسكرية ولكنه إثبات لولاء الجيش للديمقراطية لحكومة جديدة انتخبت بحرية وعدالة. وقبل ذلك بدقائق كان الجنرالات الكبار من قوة دفاع جنوب إفريقيا وشرطتها قد أدوا لى التحية العسكرية وتعهدوا بولائهم ولم أكن قد نسيت أنهم منذ سنوات لم يكونوا يحيوننى، بل كانوا يلقون القبض على.

وبعد ذلك رسمت طائرات الجيت اللون الأسود والأحمر والأخضر والأزرق والذهبى لعلم جنوب إفريقيا بدخانها.

فى يوم الافتتاح اجتاحنى إحساس بالتاريخ، ففى العقد الأول من

القرن العشرين رتقت شعوب جنوب إفريقيا البيضاء خلافاتها وأسست نظاما للتمييز العنصرى ضد البشرة السمراء فى أرضهم وكان النظام الذى أسسوه أساسا لمجتمع من أكثر المجتمعات التى عرفها العالم شراسة ولا إنسانية. والآن، وفى العقد الأخير من القرن، وعقدى أنا الثامن، أقتلع هذا النظام إلى الأبد و أستُبدل بآخر يعترف بحقوق جميع الشعوب وحرياتهم بغض النظر عن لون بشرتهم.

وقد أتى ذلك اليوم عن طريق تضحيات لا يمكن تصورها من جانب الآلاف من شعبى. ذلك الشعب الذى لا يمكن تقدير أو مكافأة شجاعته. وشعرت ذلك اليوم، كما شعرت فى أيام أخرى كثيرة أننى ببساطة نتاج كل أولئك الوطنيين الأفارقة الذين سبقونى وآلمنى أننى لم أكن باستطاعتى شكرهم ولم يكن باستطاعتهم رؤية ما حققته شجاعتهم.

لقد أوجدت سياسة الأبارتايد جرحا غائرا مستديما فى شعبى وسيقضى كثير منا سنوات عديدة إن لم يكن أجيالا لنشفى منه. لكن عقود الظلم الوحشية كان لها أثرها الذى لم تقصده. فقد أتت بأناس مثل أوليفر تامبو ووولتر سيسولو والرئيس لوثولى ويوسف داود وروبرت سوبوكوى وبرام فيشر، رجال ذوى شجاعة غير عادية وحكمة وكرم، الذين قد لا يعرف لهم مثيل مرة أخرى. إن بلدى غنى بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت أرضها لكنى كنت أعرف دائما أن ثروتها الحقيقية فى أناسها. وإنه لمن أولئك الرفاق فى المعركة قد

تعلمت معنى الشجاعة فقد كنت أرى مرارا نساء ورجالا يضحون بحياتهم من أجل فكرة وقد رأيت رجالا يواجهون هجمات وتعذيبا دون أن يهنوا مظهرين قوة واحتمالا يفوق الخيال. وتعلمت أن الشجاعة ليست هي انعدام الخوف لكن الانتصار عليه.

ولم أفقد الأمل أبدا أن التغيير لابد آت ليس فقط بسبب هؤلاء الأبطال لكن بسبب شجاعة النساء والرجال العاديين من شعبي. فلا يوجد أحد يكره شخصا بسبب لونه أو خلفيته أو دينه فإن الناس لابد أن يتعلموا أن يكرهوا وإن كانوا قادرين على تعلم الكراهية فلابد وأنهم قادرون على تعلم الحب. ففي أحلك أوقات السجن حينما كنت ورفاقي نساق إلى حافة القدرة على الاحتمال كنت أرى وميضا من الإنسانية في أحد الحراس، ربما لمدة ثانية، لكن كان ذلك الوميض يطمئنني.

وقد اخترنا المعركة وأعيننا مفتوحة ولم تكن لدينا أوهام أن الطريق سيكون سهلا، وعن نفسي فلم أندم أبدا على التزامي بالمعركة، لكن أسرتي دفعت ثمنا رهيبا نتيجة لالتزامي.

ففي بلد مثل جنوب إفريقيا كان من المستحيل القيام بالالتزام نحو الأسرة ونحو قومي وبلدي بسبب مولدي ولوني. ففي جنوب إفريقيا كان الشخص الذي يحاول أن يفي بواجبه تجاه شعبه يُنزع من أسرته ومنزله ويُجبر على أن يعيش منفصلا في وجود غير محدد من السرية والعصيان. ولم أختر في البداية أن أضع شعبي فوق أسرتي ولكني

لأنى حاولت أن أخدم شعبى وجدت أننى منعت من تأدية واجبى نحو أسرتى كابن وأخ وأب وزوج.

ولم أولد وعندى فهم للحرية فلقد ولدت حرا قدر معرفتى عن الحرية. كنت حرا أن أجرى فى الحقول قرب كوخ والدتى وحرا فى أن أسبح فى القناة الصافية فى قريتى وأمارس النشاطات الصبيانية الأخرى.

ولكن فى جوهانسبرج رأيت ببطء ليس فقط أننى لست حرا بل إن جميع من هم لونى لايتمتعون بالحرية. والتحقت بالمؤتمر الوطنى الإفريقى وعند ذلك تبدل فهمى لحريتى بفهم أكبر لحرية شعبى.

وكان خلال تلك السنوات الطويلة الوحيدة أن تحول فهمى لحرية ناسى إلى فهم لحرية كل الناس بيض وسود. فقد كنت أعلم أنه لابد من تحرير الظالم من الكراهية والتحيز وضيق الأفق.

وحينما خرجت من السجن كانت مهمتى هى تحرير الظالم والمظلوم وقد يقول البعض إنه قد تم إنجاز ذلك ولكنى أعلم أن هذا غير صحيح، فقد خطونا الخطوة الأولى فقط على طريق أطول وأصعب- فلأن تكون حرا لا يعنى فقط أن تلقى بقيدك لكن أيضا أن تعيش بطريقة تحترم وتُعلى من حريات الآخرين.

ولقد سرت ذلك الطريق الطويل نحو الحرية وحاولت ألا أتعثر ولكننى اتخذت خطوات خاطئة على الطريق. وقد اكتشفت السر أنه بعد أن يكمل الإنسان تسلق تل يكتشف أن هناك تلالا أخرى كثيرة عليه تسلقها. لقد أخذت لحظة هنا للراحة لأسترق النظر إلى ذلك المشهد

المجيد الذى يحيط بى وأنظر خلفى إلى المسافة التى قطعتها. ولكنى لا أستطيع التوقف سوى لحظة لأن مع الحرية تأتى مسئوليات. ولا أستطيع الإطالة. لأن مسيرتى لم تنته بعد.■

صدر من هذه

السلسلة

١ ـ محمد (ص)
٢ ـ صدام الحضارات
٣ ـ عصر الجينات
٤ ـ القدس
٥ ـ العولمة والعولمة المضادة
٦ ـ التاريخ السرى للموساد
٧ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨ ـ حريم محمد على
٩ ـ عولمة الفقر
١٠ ـ صور حية من إيران
١١ ـ البحث عن العدل
١٢ ـ لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣ ـ الصهيونية تلتهم العرب
١٤ ـ معارك فى سبيل الإله
١٥ ـ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦ ـ المكنز الكبير

١٧ ـ التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٨ ـ الحق يخاطب القوة
١٩ ـ نساء فى مواجهة نساء
٢٠ ـ مؤامرة الغرب الكبرى
٢١ ـ روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوچيا
٢٦- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٧- أين الخطأ ؟
٢٨- اللولب المزدوج
٢٩- رجال بيض أغبياء
٣٠- سادة العالم الجدد
٣١- الخطيئة الأولى لإسرائيل
٣٢- اللعب مع الصغار

٣٣- الإبادة السياسية
٣٤ - حكومة العالم السرية
٣٥ - ما بعد الإمبراطورية
٣٦ - بوش في بابل
٣٧ المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى
٣٨ - تزييف الوعى
٣٩- القانون فى خدمة من ؟
٤٠ ـ كفى
٤١ - معنى هذا كله
٤٢- حياة بلا روابط
٤٣ - ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٤- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٥- جسدى سلاحاً
٤٦- ثالوث الشر
٤٧- الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٨- أمريكا العظمى

٤٩- الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان
٥٠- مدربون على القتـــل
٥١- معاداة السامية الجديدة
٥٢- إبادة العالم الثالث
٥٣- بيولوجيا الخوف
٥٤- لغز اسمه الألم
٥٥- تعليم بلا دموع
٥٦- أحمد مستجير
٥٧-العين بالعين
٥٨- شاڤيز
٥٩- قصص الأشباح
٦٠- حزب الله
٦١- الإنسان هو الحل
٦٢- السيارات المفخخة
٦٣- بلاكووتر
٦٤- حضارتهم وخلاصنا